الكحول Alcool

كلمة (الكحول) بمعنى السبيرتو

كيف تولدت في اللغة العربية

جاءني من الدكتور خالد الطباع كتاب هذا نصه :

ضمني مجلس ببعض الزملاء بعد طول فراق فرجعنا بذاكرتنا الى عهد الدراسة قبل خمس عشرة سنة . ومما ذكرناه خلاف لغوي كان يقع بين أساتذتنا في المعهد بشأن كلمة الكحول (Alcool) ـ لا خلاف بين الافرنج والعرب انها عربية الأصل ، لكن أطباءنا اختلفوا : فمنهم من يقول ان أصلها العربي (الغَوْل) بدليل الآية القرآنية « لا فيها غول » وأن الافرنج أخذوا كلمتهم من الغول فيجب أن ترد الكلمة (أي كلمة (الكؤول) اليها أي الى كلمة الغول . والآخرون من الأساتذة يقولون ان أصل كلمة الكحول عربية مأخوذة من مادة الكحل وقد لاحظنا أن الخلاف بشأنها ما زال قائماً بينهم الى اليوم . فأرجو ابداء رأيكم في بيان حقيقة هذه الكلمة وكيفية نشوئها في لغتنا العربية .

الامضاء

فأجبته بما يلي :

كان عرب الجاهلية يعرفون (النفط) ويطلون به إبلهم الجربى كما يطلونها بالقطران .

والنِفط بكسر النون سائل معدني عرفه الأقدمون ممزوجاً بالشوائب ولم يُنْعِمُوا تصفيته كما أنعمها أهل زماننا . وهو الذي سميناه بالكاز وبزيت الكاز وبالبترول . والبترول كلمة افرنجية مركبة من (بترو) بمعني صخر و (أويل) بمعنى زيت فمعنى الكلمتين (زيت الصخر) أو (الزيت الحجري) لأنه يتفجر من بين الصخور والأحجار .

وعرَّف ابو حنيفة (اللغوي) النِفط بقوله : (والنِفط حُلابة جبل في قعر بئر توقد به النار) ٠

يريد أن يقول ان النِفط سائل يتحلب من مرتفعات الجبال ويتسرب الى قرارات الأرض فيستنقع فيها حتى اذا امتلأ مكانه تفجر وخرج بنابيع بنفسه أو أخرجه الناس بالحفر كما يفعلون اليوم ٠

وكان الأقدمون يستعملون النِفط في إيقاد النار كما قال (أبوحنيفة) ويسمون الأرض التي يوجد فيها النِفط (نفّاطة) وكذا السِراج الذي يوقدون به النِفط للاستضاءة سموه نفّاطة أيضاً ٠ وليس هذا فقط بل انهم اتخذوا إناءً من نحاس يوقدون به النِفط ويلقونه على العدوّ كما تُطلق المدافع اليوم ٠ ويسمون ذلك الوعاء أو المِرماة النحاسية (نفّاطة) أيضاً ٠

ويظهر أنهم كانوا يستعملون النفط علاجاً ، فقد قال صاحب القاموس : (والنفط محلِّل مُذيب مفتّح للسدود والمغص قتّال للديدان الخ ٠٠٠)

* * *

وكل هذا لا يهمنا وانما يهمنا أن نعرف كيف اهتدى العرب الى وضع كلمة (الكُحيل) التي حرّفت الى (الكحول) للدلالة على المادة الكيماوية التي تسمى بالافرنجية (سبيرتو) — أولئك العرب الذين كانوا يراقبون الأشياء التي تقع تحت حواسهم بيقظةٍ وانتباه ثمّ يميزون بين خصائصها ويضعون لكل شيء ذي صفة خاصة به اسماً يناسب تلك الخاصة ٠ ومهما كثرت الأشياء وتعدّدت الخواص فإنهم واجدون لها من لغتهم الخصبة الطيّعة كلمات للدلالة عليها ٠

وهكذا هم إزاء (النفط) مذ وجدوا بعضه سائل أبيض وهو أحسن أنواعه وبعضه سائل أسود بسبب امتزاجه بشوائب زفتية وقد تتراكم هذه الشوائب وتتكتل فتُخرج النِفط عن رقته وسيلانه فيصبح غليظاً خاثراً يسيل بصعوبةٍ أو لا يسيل قط فيسمونه حينئذ زفتاً أو قاراً أو قيراً ٠

وكما كان العرب يستعملون القطران في شفاء جرب إبلهم استعملوا هذا النفط السائل أيضاً . فكان أحدهم يتناول قليلاً منه (أي من النفط) ثم يصبه بلباقة على نُقبة بعيره (يعني على بثرة الجرب التي ظهرت أوّل أوّل في جلده) كما يصبُّ الكحال الكُحل في العين الرمداء . ولا يلزم أن يكون الكحل مسحوقاً جامداً بل يكون سائلاً [1] أيضاً فقد قال صاحب (المحكم) : «الكحل : كل ما وضع في العين يُشتفى به» .

فلما استعمل العرب (النفط) علاجاً للنقَب أو لبثور النُقَب التي تبدو كالعيون في جلود إبلهم رأوا في النفط كُحلا نافعاً لجرب الإبل ككحل العيون فلم يرضوا ان يحافظوا على اسمه القديم وهو النفط بل وضعوا له اسماً جديداً باعتباره شبيهاً بالكُحل فقالوا (كُحَيْل) وأدخلوا عليه لام التعريف حتى كادوا لا يستعملونه من دونها . فقالوا (الكُحَيْل) قال القاموس وشارحه : (والكُحيل كزُبير النفط يُطلى به الإبل للجرب . وهو مبني على التصغير لا يستعمل الا هكذا) اهـ .

وقال صاحب لسان العرب ما نصه : (والكُحيل مبنيٌّ على التصغير هو الذي تُطلى به الإبل للجَرَب لا يستعمل الا مصغراً . قال الشاعر : (مثل الكُحيل أو عقيد الرُّبِ) اهـ .

إذن صار للنفط اسم جديد في اللغة العربية وهو (الكُحيل) وقد جاءته هذه التسمية من كونه أسود بشوائبه الزفتية ككحل الأثمد الذي اشتهر بسواده أو من كونه تُعالج به بثور الجرب فيكون كحلاً لها ككُحل العين السائل ونسميه القطرة .

---

(١) جاء في اللسان في مادة (البَرَم) انه بمعنى الكحل وانه قيل المفضل ما البَرَم قال : الكحل المذاب ، ولا نعلم ماذا أراد المفضل بالكحل المذاب ؟ أأراد به الكحل السائل الذي يوضع في العين للاستشفاء ؟ أو أراد به (الكحيل) مصغراً بمعنى النفط الذي يصب على بثور الجرب في الابل كما يأتي .

ثم على تمادي الأيام أصبح (الكُحيل) من أسماء النِفط وُتنومي فيه سبب الوضع والتسمية · وقد تخطى هذا الاستعمال الصدر الأول حتى بلغ زمن العباسيين الذي اشتغل فيه علماء العرب بفنون الطب والفلك والكيمياء والتجارب فيها · وبلغوا منها مبلغ الاكتشاف : من ذلك اكتشافهم مادةً كيماوية سائلة بيضاء اللون تشتعل بسرعة ولما رأوها تشبه النِفط الأبيض السائل أطلقوا عليها اسماً من أسمائه المعروفة وهو (الكُحَيْل) وصاروا في كتبهم الكيماوية يستعملون كلمتين كلمة (النِفط) مريدين بها الزيت المعدني المعروف وكلمة (الكُحيل) مريدين بها مادتهم المكتشفة الجديدة ·

ووصلت كتب العرب في الكيمياء الى علماء الافرنج فعرفوا لهم فضلهم في اكتشاف هذه المادة العجيبة النفع وقد سموها هم (سبيرتو) لكنهم مع هذا رأوا من وفاء الذمم أن يحافظوا على اسمها العلمي العربي الذي اصطلح عليه كيماويو العرب وهو (الكُحيل) لكنهم (أي كيماويو الافرنج) حرفوه الى ما يناسب رَطانتهم فقالوا (الكُحول) أو (الكُؤول) ·

وخلاصة القول ان علماء الكيمياء العرب سموا روح (السبيرتو) باسم من أسماء النفط وهو (الكحيل) كما مرّ عن القاموس · وذلك مذ رأوا الشبه تاماً بينهما (أي بين مادتهم المكتشفة وبين الكُحيل الذي هو النفط) من جهة الميوعة وبياض اللون الضارب الى زرقة أو صفرة وقابلية الاشتعال ·

أما الذهاب الى ان « الكحول » في كتب الافرنج محرفة عن « الغَوْل » الواردة في قوله تعالى في صفة خمرة الآخرة « لا فيها غول » فهذا يستدعي أن يكون كيماويو العرب استعملوا في كتبهم الكيماوية كلمة « الغول » القرآنية

(المجمع) ذكر البارون كارادافو في كتابه : مفكرو الاسلام ص١٣٨٩ الجزء الثاني : ان الكحول مشتقة من اسم عربي هو الكحل ·

ثم أخذها الافرنج عنهم وحرفوها الى (الكحول) مع أن أطباء العرب لم ينقل أنهم استعملوا كلمة « الغول » القرآنية لمادتهم المكتشفة .

ان الافرنج لا يوجد في لغاتهم حرف الحاء فضلاً عن أن يخترعوها ويدسوها في كلمة « الغول » التي حرفوها الى (الكحول) أولاً ثم الى (الكؤول) ثانياً ولا يخفى أن المراد بالغَوْل في القرآن الاغتيال مصدراً لا اسماً أي أن خمرة الجنة لا تغتال العقول .

المغربي